انْبِنَاءُ اختيار على اختيار/ شرح الشنتمري لحماسة أبي تمام أنموذجا

أ. توفيق مساعدية

جامعة الاخوة منتوري قسنطينة.

ملخص:

يعد ديوان الحماسة أحد أنماط الاختيارات الشعرية المبتكرة التي جمع فيها أبو تمام عيون الشعر العربي، وصنفها في عشرة أبواب بحسب الموضوعات الشعرية، وقد تقبل أهل الأدب هذا الاختيار تقبلا حسنا، فأهتموا بقراءته وتدريسه وشرحه وتفسيره، ولما كان الأعلم الشنتمري واحدا من بين هؤلاء الشراح الذين تصدوا لشرح هذا الديوان بطريقة جديدة غير معهودة اختيارا واخراجا وترتيبا، فإن هدف هذا البحث ينصب على محاولة توضيح الأسس التي اعتمدها الشنتمري في شرحه لهذا الاختيار الشعري.

summary:

The Office of enthusiasm is one of the types of creative poetry choices that Abu Tammam collected in the eyes of the Arabic poetry, classified in ten sections according to the poetic themes, and the people of literature accepted this choice well accepted, they were interested in reading, teaching, explaining and interpreting, and the knowledge Shantamri one of those commentators who The aim of this research is to try to explain the way that Al-Shantammari adopted in his explanation of this poetic choice.

- ضبط مصطلح الشرح ومدارسته.

إن المهمة الصعبة التي يواجهها النقد المعاصر هي إشكالية تحدي المصطلحات بدقة ورسم حدودها المنهجية والاجرائية حتى تكون أكثر فعالية عند مواجهتها لموضوعها، ويعد مصطلح الشرح من بين هذه المصطلحات التي تفرض على الدارس الوقوف عنده وضبطه مع تبيان طريقة اشتغاله وتحليل آلياته[1]، لكن محاولة النظر في مفهوم مصطلح الشرح نظرة ضبط ومدارسة لا يمكن أن يتم بمعزل عن مفاهيم أخرى مشدودة إليه بأكثر من سبب، إذ نجد إضافة إلى مصطلح (الشَّرح)، مصطلحي (التَّفسير) و(التَّأويل). وهذه المصطلحات الثلاث وإن استخدمت في مجالات معرفية متنوعة، ومن زوايا نظر متباينة، فإنَّ الرجوع إلى جذورها الاشتقاقية من شأنه أن يكشف عما يجمع فيما بينها من متصوَّرات جامعة تؤلِّف بينها على نحو يجعلها تضطلع فيه بنفس الوظيفة الدلاليَّة، وإن تعددت العلامات وتباينت[2].

وبالاعتماد على المادة المعجمية التي أتاحها لنا لسان العرب فإننا نجد ما نصه: " الشَّرْحُ: الكَشْفُ؛ يقال: شَرَحَ فُلانٌ أَمْرَهُ أَي أَوْضَحَهُ، وَشَرَحَ مَسْأَلَةً مُشْكِلَةً: بَيَّنَها، وشَرَحَ الشيءَ يَشْرَحُه شَرْحاً، وشَرَّحَه: فتحه وبَيَّنَه وكشفه. وكل ما فُتح من الجواهر، فقد شُرِحَ أَيضا. تقول: شَرَحْتُ الغامِضَ إذا فَسَّرْته ... والشَّرْحُ الحِفْظُ، والشَّرْحُ الفَتْحُ، والشَّرْح البَيَانُ، والشَّرْح الفَهْمُ..."[3].

وقد جاء في مقاييس اللغة لابن فارس ما يتوافق مع ما ذهب إليه ابن منظور لما قال:" الشين والراء والحاء أصيل يدل على الفتح والبيان. ومن ذلك شرحت الكلام وغيره شرحا، إذ بينته..."[4].

أما التفسير فهو: " البَيَانُ. فَسَرَ الشَّيءَ يَفْسِرُهُ، بالكَسر، وتَفْسُرُهُ، بالضَّمّ، فَسْراً وفَسَّرَهُ: أَبانَهُ، والتَّفْسِيرُ مِثْلُهُ. ابن الأَعرابيّ: التَّفْسِيرُ والتَّأْوِيلُ والمعنَى واحِدٌ. وقَوْلُهُ

عزَّ وجلَّ: وَأَحْسَنَ تَفْسيراً؛ الفَسْرُ: كَشْفُ المغَطّى، والتَّفْسيرُ كَشفُ المرادِ عن اللَّفظ المشْكِلِ ... "[5].

ولا يختلف صاحب المعجم الوسيط في تعرضه للفظة التفسير عما جاء به ابن منظور لما قال:" فسر الشيء فسرا وضحه، وفسر آيات القرآن شرحها... والتفسير: الشرح والبيان "[6].

أما التأويل فهو من: " أَوَّلَ الكلامَ وتَأَوَّله: دَبَّره وقدَّره، وأَوَّله وتَأَوَّله: فَسَّره ... والمراد بالتأْويل نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأَصلي إِلى ما يَحتاج إِلى دليل ... وسئل أَبو العباس أَحمد بن يحيى عن التأْويل فقال: التَّأْوِيلُ والمعنَى والتَّفْسِيرُ واحِد... والتَّأْويلُ تفسير الكلام الذي تختلف معانيه ولا يصح إِلاّ ببيان غير لفظه ... التَّأويلُ تفسير ما يَؤُولُ إليه الشيء ... "[7].

وما يقف عليه الناظر، من على شرفة دلالة هذه المصطلحات، هو أن الشرح يعني: البيان والتبيين والفتح والفهم والحفظ والإيضاح، والتفسير يعني: الإبانة والكشف والمعنى والتأويل، أما التأويل فيدلّ على التفسير والتدبر والتقدير والمعنى والطلب والتحري[8].

وواضح تماما فيما يصل بين هذه المصطلحات المذكورة من متصورات جامعة، ما يقر بشكل جلي أن هذه المفاهيم الثلاثة وإن كانت مختلفة من جهة اللفظ فإنها متقاربة من جهة المعنى ومتحدة فيه[9]، ولعل هذا ما جعل صاحب اللسان – والقول لأحمد الودرني-يُسخّر بعضها لتعريف البعض الآخر، فقد حدَّ الشرح بـ التفسير: " شَرَحْتُ الغامِضَ إذا فَسَّرْته "، وحدَّ التفسير بـ التأويل أكثر من مرة: " التَّأْوِيلُ والمعنَى والتَّفْسِيرُ واحِد... التَّأَوُّلُ والتَّأْويلُ تفسير الكلام ... التَّأويلُ تفسير ما يَؤُولُ إليه الشيء ... ". وهذا التداخل الدلالي الذي يصل حدّ التطابق في بعض

الأحيان ينهض دليلا واضحا على تساقط كل الحدود الفاصلة بين هذه المصطلحات[10].

هكذا، ومن على شرفة هذا التداخل الدلالي بين هذه المصطلحات، يرى أحمد الودرني أنه إذا كان الشّرح هو التفسير في بعض وجوهه، وكان التفسير هو التأويل من وجوه، فإن الشرح يصبح ضربا من التأويل، وجميع هذه المصطلحات تتواصل على محور واحد هو الفهم لأجل تحقيق غاية إدراك قَصْدِ كاتب ما من خلال ما يقوله أو يكتبه[11].

ويضيف أحمد الودرني، في هذا الإطار، أن آلية تحقيق سمة الفهم الأوفى لقصد كاتب ما تقتضي من الشارح أن يراعي في شرحه حركتين الأولى عمودية والثانية أفقية، وكلتا الحركتين تكتسب قيمتها من خلال علاقتها بالأخرى[12].

تبدأ الحركة الأولى/العمودية بفعل الاختراق الذي يقوم به الشارح لحجب اللغة الكثيفة وهو اختراق لحاجز فيزيائي مادي هو الألفاظ بحثا عما يثوي خلفه أو تحته من خبيء المعاني[13]، وبعد أن يكون الشارح قد ولج إلى المعاني عبر أغشية المباني، فهو، أيضا، مدعوٌّ في الآن نفسه إلى حركة ثانية/أفقية يقتضيها فعل الشرح وهي " خلق أسباب التشابك بين تلك المعاني وهاتيك الدلالات، فيمْحُضُها درسا، ويدمنها نظرا ... وصولا إلى أصناف الاستنتاجات وأنماط الفوائد والخلاصات "[14].

ومن خلال تقاطع هذين المحورين: العمودي والأفقي يكتمل الشَّرح ويستقيم الفهم فلو وقع الاكتفاء بالقراءة العمودية للنص لوسم الشرح بالقصور عن بلوغ المقاصد، ولو تم الاقتصار على القراءة الأفقية لوسم بالافتقار إلى الدقة والعمق، لذلك فالعلاقة بين المحورين أساسها التلازم والاقتضاء[15].

إن طرق باب الشَّرح وفق هذا التأليف الذي يصل الظاهر(سطح النص) بالباطن(عمق النص)، والمتجلي(البنية اللفظية) بالخفيِّ(البنية الدلالية)، تجعل من الشَّرح حركة لا تنحصر في ضرب من ضروب الفهم العفوي المعزول بل هو عملية ذهنية جوهرها تفسير دقيق ينطلق من المعاينة لظاهرة لغوية هي النص، ثم تشخيصٌ لأبرز جوانبها وصولا إلى الاستنتاج أو الخلاصة[16].

وما يمارسه الشّارح في إطار عملية الشَّرح من تفكيك للنصوص بغرض فهمها وتحديد معناها معقود على غاية واحدة هي استمالة المتلقي واستدعاء ذهنه كي يتمثل المادة المشروحة[17]، وهو ما يجعل من الشَّرح وفق هذه الرؤية " ممارسة محورها الجمع بين مرتبتي الفهم والإفهام، بحيث تتحقق المرتبة الأولى من خلال الصلة الرابطة بين النص والشّارح، وتتحقق المرتبة الثانية من خلال القناة الواصلة بين المتلقي والشّارح الساعي إلى الإفهام"[18].

ومن على شرفة هذا التصور، يعتبر المعنى في النص الشعري من بين المعاني القابلة للشرح، وذلك بحكم ما ينطوي عليه من انفتاح دلالي، وما يتيحه من تعدد في التخريج في مختلف مستوياته الشعرية التي يرصد فيها الشراح مظاهر الاحتجاب والابهام، فيعمدون إلى توضيحها من أجل أن تكون في متناول القراء والمتلقين[19].

– تاريخية مصطلح شّرح الشعر حتى ظهور ديوان الحماسة.

منذ أن وجد الشعر العربي وجدت رغبة إلى فهم معانيه وتبيان دلالاته، غير أن هذه الحاجة تختلف من عصر إلى عصر ومن بيئة إلى أخرى؛ ففي الفترة الجاهلية وصدر الاسلام لم تكن الحاجة ملحة لشرح ما غمض من الشعر، بل لم تكن القبائل ترى فيما يقوله شعراؤها غامضا مبهما، لأن تجارب شعرائهم ومعاناتهم بينهم معلومة،

وتعبيراتهم وإشاراتهم لديهم مفهومة، أما إذا ما استحدث في تلك التجارب جديد غير مألوف، فإن السامع يهرع إلى الشاعر نفسه ليوضح مقصوده ويشرح له مراده[20].

لكن منذ أن اكتمل نزول القرآن، ودخل في ربوعه أجناس وعناصر متباينة، احتاج الناس إلى معرفة معانيه وتبيان ألفاظه ودلالاته " وكان في هذا الاحتياج مؤشر ضخم للعناية بالشعر والافادة منه في تفسير لغة القرآن ومعانيه"[21]، وهي المهمة التي اضطلع بها العلماء في النصف الأول من القرن الثاني الهجري، ثم تنامى الاهتمام بالشعر رواية وضبطا مع جيل اللغويين والرواة الذين حركهم هاجس الجمع على امتداد القرن الثاني وأوائل القرن الثالث[22].

وكان على رأس هؤلاء العلماء الرواة: أبو عمرو بن العلاء (ت 154هـ)، وعيسى بن عمر (ت 149هـ)، وأبو الخطاب الأخفش (ت 177هـ)،خلف الأحمر (ت 180هـ)، ويونس بن حبيب (ت 182هـ)، وحماد الراوية (ت 151هـ)، والمفضل الضبي (ت 168هـ) وغيرهم ...

والملاحظ على شروح هؤلاء العلماء الرواة أنهم كانوا يردفون ما يروونه ويدونونه من أشعار العرب، ببعض اللمحات النحوية والإشارات الصرفية، والمناسبات التاريخية.

ورغم أن الشَّرح عند هذا الجيل لم يكن مقصودا لذاته بقدر ما كان اهتمامهم منصبا على جمع المادة الفنية وتوثيقها، ثم دراستها وروايتها، إلاّ أنهم حازوا فضل السبق والريادة بجهودهم التي كانت مدادا لتلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم " في المضي بشرح الشّعر إلى ميدان أرحب، ومجال أوسع مما كان عليه في زمن هؤلاء الأوائل"[23].

والحق إن علماء الجيل الثاني أمثال أبي عبيدة (ت 210 هـ)، وأبي زيد الأنصاري (ت 215 هـ)، والأصمعي (ت 216 هـ)، وابن الأعرابي (ت 231 هـ)، وأبي عمرو الشيباني (ت 231 هـ). وكذلك علماء الجيل الثالث أمثال ابن السكيت (ت 246 هـ)، وأبي حاتم السجستاني (ت 254 هـ)، والرياشي (ت 257 هـ)، ... وغيرهم من علماء منتصف القرن الثالث، قد استطاعوا أن يخطوا في شرح الشعر خطوات واسعة " قوامها صناعة شروح أدبية منتظمة وافية، تفسر الغريب، وتوضح المعاني، وتعرض الروايات، وتقوّم الأشعار..."[24].

وقد استثمر علماء الجيل الرابع أمثال السكري (ت 275 هـ)، والمبرد (ت 285 هـ)، وأبو العباس ثعلب (ت 291 هـ)، ومن جاء بعدهم من علماء أواخر القرن الثالث في حركة الشّروح بجمع جهود السابقين وقاموا بتنسيقها وتحليل ما جاء فيها من أقوال وآراء، لأنهم وجدوا " أنفسهم إزاء أشعار مدونّة، تختلف رواياتها ومصادرها والتفسيرات التي ألحقت بها. فوجهوا اهتمامهم إلى صنعة شروح، تنسّق هذه الاختلافات، وتضيف إليها ما يوحدها، ويوجهها نحو خدمة الشعر"[25]. فظهرت بذلك بعض الدواوين والمختارات الشعرية التي تحمل في طياتها عددا من الشروح والروايات المختلفة، التي أشبعوا تفسير مشكلها، وبالغوا في إيضاح غامضها، واستقصوا شرح غريبها، متلافين ما فرط فيه غيرهم منها. وبهذا العمل قدم هذا الجيل أضخم محاولة منظَّمة ومنقَّحة في صناعة الشّروح[26].

هذه الحال هي الطابع السائد على الشروح طوال الحقبة الماضية حتى إذا ما وصلنا إلى عصر الجيل الخامس–أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع–فإذا نحن أمام تطورات، ذات أهمية كبرى في تاريخ الشّروح؛ فقد تصدى لشرح الشعر–حينئذ–علماء من ذوي المنازع والعلوم المختلفة، انعكست فيما ألفوا وصنفوا من شروح، وتميزت بها عن سواها[27]، فأبو محمد الأنباري (ت 304 هـ) أولى في شرحه العناية بالقضايا

اللغوية والأخبار التاريخية، وابنه أبو بكر (ت 328 هـ) اهتم في شرحه باللّغة والنحو، واليزيدي (ت 310 هـ) التزم في شرحه بجانب المعاني، في حين أن الصولي (ت 336 هـ) جمع في شرحه بين المعاني والتاريخ[28]. وقد رأى علماء هذا الجيل أن مبدأ التنسيق والاختيار الذي سار عليه الشراح السابقون يعد تحديدا لا فائدة منه بل إنه تقصير يجب أن يتلافوه، لأن القصد من الشرح هو التعليم والتثقيف، لذلك، وجدت في شروحهم ظواهر لم تكن مألوفة في شروح السابقين منها: الاهتمام بعرض الروايات المختلفة، والإشارات النقدية، والنكات البلاغية، بأسلوب أدبي تبرز فيه شخصية الشارح ومدى إدراكه لمعاني الشعر. وهذا الأسلوب هو ما دعا محمد عبده عزام إلى أن يقول: " فأما عمل الشعر شروحا فلا نعرف هذه الظاهرة إلاّ في القرن الرابع ... "[29].

وعلى مشارف نهاية القرن الرابع، نلمس عند علماء الجيل السادس تطورات فنية ومنهجية في تناول شرح الشعر؛ إذ كان معظم شراح هذه الفترة أمثال السيرافي (ت 368 هـ)، وابن خالويه (ت 380 هـ)، والآمدي (ت 371 هـ)، وأبي القاسم البصري (ت 375 هـ)، والرماني (ت 384 هـ)، وابن جني (ت 392 هـ)، وأبي هلال العسكري (ت 395 هـ)، ... وغيرهم، من ذوي الثقافات الواسعة المتعددة التي انعكست على شروحهم، فاتسمت بملمحين: أولهما التخصص والتحديد؛ بحيث تكاد تقتصر الشروح على لون معين من الشرح، وثانيهما النقد التحليلي التطبيقي المعلل، الذي يهدف إلى إظهار الهنات التي وقع فيها الشعراء والعلماء[30].

وما نكاد نصل إلى القرن الخامس حتى نجد عند علماء الجيل السابع أمثال: أبي عبد الله الإسكافي (ت 420 هـ)، وأبي الحسن الربعي (ت 420 هـ)، والمرزوقي (ت 421 هـ) ... وغيرهم، وثبات واسعة المدى في شرح الشعر، إذ أخذوا يستكملون ما قصر فيه سابقوهم أو ما تركوه دون شرح، وما يلحظ في شرحهم بروز

عنصر "استعراض المعاني عوضا عن الاستطراد السابق في المسائل النحوية والصرفية والإعرابية"[31]. وكانوا في استخراجهم للمعاني يتفننون في تخريج أكثر من معنى للبيت الواحد، مع النقد والتحليل والتعليل والابداع.

أما شرح الشعر في القرن الخامس، مع علماء الجيل الثامن، جيل أبي العلاء المعري (ت 449 هـ)، والواحدي (ت 468 هـ)، والأعلم الشنتمري (ت 476 هـ)، والزوزني (ت 486 هـ)، فإن العنصر البارز في شروحهم هو عنصر توضيح المعاني والاهتمام بها اهتماما قد يطغى على غيرها من العناصر الأخرى، مع عدم إغفال الجوانب البيانية والعناصر التوضيحية الأخرى نحوية كانت، أم لغوية، أم تاريخية في إطار من الإيجاز والاختصار[32]. ولعل ما قدمه هؤلاء العلماء يجيز لنا أن نقول إن القرن الخامس كان أزهى العصور لشرح الشعر، وأقربها إلى المنهجية والفنية في الشرح[33].

على أننا نلحظ أن الشروح في نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس مع علماء الجيل التاسع، جيل الشيرازي (ت 500 هـ)، التبريزي (ت 502 هـ)، و الفصيحى (ت 516 هـ)، وابن السيد البطليوسي (ت 521 هـ) ... وغيرهم، قد أخذت " منحى أساسه الجمع والتلخيص والاستصفاء لشروح السابقين "[34]، علما أن هذه الشروح كانت تصب في الغالب الأعم في قوالب الغاية التعليمية، وفي المدارس النظامية –التي أقامتها الدولة الاسلامية– خدمة لطلاب العلم الراغبين في التزود بالمعارف والعلوم، مما جعل من طبيعة الشروح في هذا العهد – وإن غلب على بعضها سمة التأليفي التصنيفي– أنها وضعت في اعتبارها الطابع التعليمي التحليلي الذي يخدم المبتدئين[35].

وتكاد تكون ثقافة التلاخيص والمختصرات والمنتخبات هي السائدة على جل الشروح المتعاقبة بعد القرن السادس؛ بحيث كان منحى الشروح المتعاقبة صورة جلية عن جمع آراء من سبق من الشراح، وبقيت " هذه السلبية الثقافية (مخيمة) على العرب حتى عصر ما يسمى النهضة، العصر الذي استيقضوا فيه فهبوا يحيون تراثهم تحقيقا وضبطا وشرحا"[36].

هذا، والمتأمل في هذه السيرورة التاريخية لظاهرة شرح الشعر عند العرب لا يشك في أن شروح ديوان الحماسة عندما ظهرت للوجود لم تكن بمعزل عن هذه الحركة وما شهدته من تطورها، فمنذ النصف الثاني من القرن الثالث بدأت شروح الحماسة في الظهور، وأول عالم بلغنا خبره في صناعة شرح للحماسة هو أبو محمد القاسم بن محمد الديمتري المتوفى سنة 287 هـ، وبعد ذلك توالت الشروح وتعددت حتى بلغت ما يربوا عن الأربعين شرحا عدا الشروح المجهولة النسبة إلى أصحابها[37].

لقد كان لخصوصية ديوان الحماسة دور كبير في إيجاد هذا القدر الكبير من الشراح الذين تنوعت شروحهم بتنوع مشاربهم الثقافية، ومنازعهم الفكرية، ومناهجهم النقدية، ووسائلهم الاجرائية، فكان منهم من اهتم بالغريب كالمعري، ومنهم من وقف عند الأخبار والأنساب كابي الرياش، ومنهم من توخى المعاني كالدمتري والنمري، ومنهم من قصر جهده على النحو كابن جني[38]، ومنهم من تعمقت لديه المعرفة بنظرية الابداع وتنوعت الآلات الاجرائية، فأنشغل بجميع هذه العناصر، كما هو الحال عند المرزوقي والتبريزي في المشرق والشنتمري في المغرب الاسلامي[39].

-منهج الأعلم الشنتمري في شرحه لحماسة أبي تمام

الشنتمري: هو يوسف بن سليمان بن عيسى النحوي؛ وأشارت المصادر التي ترجمت له إلى أنه يكنّى أبا الحجاج، ويلقب: بالأعلم الشنتمري. ولد سنة 410 هـ في مدينة شنتمرية*، وتفقه منذ سنة 433 هـ في قرطبة، وتوفي في إشبيلية سنة 476 هـ على ما أجمع عليه أصحاب كتب التراجم والطبقات[40].

أتم الأعلم الشنتمري مرحلة التحصيل في قرطبة حتى أصبح أحد علمائها، لينتقل بعدها إلى مدينة إشبيلية عاصمة العباديين؛ وكغيرها من الأسر الأندلسية، فقد أولت هذه الأسرة على نفسها الاهتمام بتنشيط الحركة الثقافية من خلال الأخذ بيد العلماء وتكريم المشهورين من الأدباء والشعراء، لهذا اتصل بهم الأعلم[41]، فاختصه " آل عباد بتدريس أولادهم فكان أستاذا لولد المعتضد بالله، ومن بعده المعتمد على الله"[42]، ولم ينقطع الأعلم عن التدريس حتى كف بصره في آخر عمره[43].

لقد تعددت نعوت الأعلم بتعدد المظان التي أشارت إليه، فكان مرة نحويا، وأخرى أستاذا، وآونة أديبا، وتارة فقيها، وهي نعوت تكشف عن مكانته المرموقة، وطول باعه بين علماء زمانه[44]، وقد شهد ابن خلكان على منزلته العلمية بقوله :" وكان عالما بالعربية واللغة ومعاني الأشعار، حافظا لجميعها، كثير العناية بها، حسن الضبط لها، مشهورا بمعرفتها وإتقانها "[45]، أما صاحب الذخيرة فقال عنه وهو بصدد الحديث عن الشاعر عبد الجليل بن وهبون:" وقد شدا طرفا من الأدب، وكان الأستاذ أبو الحجاج الأعلم يومئذ زعيم البلد، وأستاذ ولد المعتمد، فعول عليه في رحلته، وانقطع إليه بتفصيله وجملته"[46].

وإلى جانب هذا التعدد في نعوت وصفه، فقد تعددت كذلك الموضوعات التي ألم بها الأعلم فيما صنف حيث ألف في النحو واللغة والأدب وشرح العديد من الدواوين الشعرية[47].

ويعدّ شرحه لحماسة أبي تمام والذي سماه بـ: " تجلِّي غرر المعاني عن مثل صور الغواني والتحلِّي بالقلائد من جواهر الفوائد" الشّرح الأندلسي الوحيد الذي كتب له النّور قبل غيره من الشّروح الأندلسية لنص الحماسة من جهة ، ومن جهة أخرى يعدّ أخر الأعمال العلمية التي ألفها الأعلم على عهد المعتضد، يقول الأعلم في مقدمة شرحه: " ثم رأيت الآن أن أختم ما اعتملت فيه قديما وحديثا، من ذلك، بجمع كتاب في أشعار الحماسة يقتضي تهذيبها وتنقيحها، وتقييد ألفاظها وتصحيحها، وتبيين معانيها، وتقريب أغراضها، وتفسير غريبها وغامضها وإعرابها، حتّى يكون هذا الكتاب مُرْبيًا على جميع التآليف فيها، مغنيا عن استعمال التصنيفات المحيطة بها"[48].

وما يلحظ على هذا القول أن الأعلم قد حدد الطريقة التي اعتمدها في عملية التأليف؛ وهي طريقة تقوم على عملية الجمع لنصوص الحماسة من خلال رواياتها المتعددة التي كانت منتشرة في الشرق والأندلس إلى زمانه، ويخرج به مؤلفا كاملا لم يكن له نظير من قبل، بحيث يضعه بين أيدي القراء كأول صورة جامعة مشتملة لكلّ ما ذهبت إليه تلك الروايات المتعددة[49].

هذا، وإلى جانب حرص الأعلم على جعل عمله صورة حسنة لما تفرق من حماسة أبي تمام في مختلف رواياتها، فإننا نجده يحرص كذلك على انجاز أكبر قدر من التهذيب والتنظيم والتنسيق، بحيث عمد إلى محتوى كل باب ورتبه على الحروف الهجائية، وفقا للترتيب الأندلسي، ليتيسر للمتعلمين نيل مأربهم والظفر ببغيتهم

بسهولة ويسر[50]، وفي هذا يقول الأعلم:" ورتبته على حروف المعجم، ليقرُب بذلك تناوله، ويسهل على الطالب مرامه، على حسب ما صنعه أهل العصر"[51].

لكن هذا الاخراج الجديد وغير المعهود لنص الحماسة ذهب الظّن ببعض من عرض لها إلى أنها حماسة جديدة صاحبها الأعلم وليست رواية جديدة لحماسة تقادم عصرها وتوالت عليها الروايات[52]، غير أنّ محقق شرح الأعلم لحماسة أبي تمام يدفع هذا الرأي ويخالفه حين يقرر " أن ما صنعه الأعلم ليس حماسة مستقلة، وأنّ اسنادها إليه منطوٍ على نوع من التسامح، وإنما هو مجرّد جامع منظم لما تفرق من حماسة أبي تمام في مختلف رواياتها "[53].

والحق إن المتمعن في مقدمة الأعلم على شرحه يبدو له جليا أن الرجل – كما أشار المحقق–لم يفصح على أنه سيؤلف حماسة خاصة به بعيدا عن جو أبي تمام؛ بقدر ما صرح على أنه سيكون في هذا العمل مجرد جامع منظم لما تفرق من حماسة أبي تمام في رواياتها المختلفة، والدليل على هذا؛ سرده لأغلب المصادر التي استقى منها النص، ورجع إليها في صياغة ما تعلق بجوانب من الشرح[54]، لما قال:" وضمنته كل ما تضمنه الحماسات من شعر، كالحماسة القديمة المنسوبة إلى أبي تمام التي هي أصل لغيرها، وحماسة أبي الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني، وحماسة أبي محمد عبد السلام بن الحسين بن محمد بن طيفور القرمسيني البصري ... "[55]. وهو ما يوضح أن الأعلم لم تكن له رغبة تأليف حماسة خاصة به، بقدر ما كان همه جمع وتنظيم ما تفرق من حماسة أبي تمام لإخراجها في ثوب يليق بشهرتها ومكانتها[56].

وبناء على ذلك، يتضح أن الأعلم قد اعتمد في إخراج هذا العمل على ثلاثة أصول رئيسية؛ استقطر عصارتها ووفق بينها، وأورد كل ما فيها، سواء تعلق الأمر بزيادة الأبواب وترتيبها، أو بإضافة قصائد مستقلة، أو أبيات متفرقة[57]، وقد أشار الأعلم إلى أنه اقتدى في هذه الزيادة بما أورده عبد السلام البصري في حماسته،

حين قال :" وهذا الباب الثالث عشر زائد على ما تضمنه حماسة أبي تمام القديمة، وحماسة أبي الفتوح الجرجاني وغيره، وهو ثابت في حماسة عبد السلام، فأتيت به، ليأتي هذا الكتاب على جميع ما تضمنت الحماسات المختلفة من الأبواب "[58].

وعلى ذلك لم يكن غريبا أن يشير غير واحد من علماء الأدب والنقد العربي القديم إلى جهود الأعلم في رواية الحماسة من حيث خروجها بهذا النمط الجديد المغاير اختيارا واخراجا وترتيبا، فقد أشار صلاح الدين الصفدي إلى جهد الأعلم في رواية الحماسة ومنهجه فيها بقوله:" شرح الحماسة شرحا مطوّلا، ورتّب كل باب منها على حروف المعجم"[59].

أما ابن خلكان فأشار في وفياته إلى إجادة الأعلم في شرحه لما قال:" وغالب ظني أنه شرح الحماسة، فقد كان عندي شرح الحماسة للشنتمري في خمس مجلدات، وقد غاب عني الآن من كان مصنفه، وأضنه هو، والله أعلم، وقد أجاد فيه"[60].

كما استشعر الأندلسيون ظهور حماسة الأعلم بمميزات فريدة على حماسة أبي تمام، فأعجبوا بها ومالوا إليها واعتمدوا عليها[61]، وقد عبر عن هذا الاهتمام أبو اسحاق إبراهيم بن ملكون الحضرمي بقوله:"كانت حماسة أبي تمام على ترتيبها مجفوة القدر في عصرنا، ومطرحة الاستعمال عند أبناء دهرنا، حين أخنت هذه الحماسة الأعلمية عليها باستمالة النفوس إليها"[62].

أما أسلوب الأعلم في الشرح والتفسير فيقوم على التقديم للحماسة بعبارة الإنشاد التي يذكر فيها اسم الشاعر، مبديا نوعا من الحرص في التنقيب عن نسبة ما أغفله بعض الشراح قبله، ليعمد بعد ذلك إلى توزيع أبيات النص لأجل شرحها شرحا لغويا؛ يقف على معاني الألفاظ في معجمها ليخرج بها في النهاية إلى المعنى العام الذي يقتضيه السياق[63]. وما يميّز شرحه هذا هو منزعه التعليمي الاختصاري في

أساليب تفسيره وعرضه للظواهر النحوية والبلاغية والعروضية، وقد أشار المحقق إلى هــذا حين قال: " ويبدو (الأعلم) شديد الحرص على تطبيق منهاج صارم وتنفيذ خطة محكمة لا يخرج عنها، تستوعب النص وتستخرج عصارته وتقدمه للمتعلمين وأشباههم مذللا موطأ الأكناف"[64].

وهكذا، ومن خلال هذا العرض يتضح لنا أن شرح الأعلم الشنتمري لحماسة أبي تمام يعد شرحا متفردا عن غيره من الشروح الأخرى، ولا يحتاج الناظر في شرحه لكبير جهد حتى يتبين انفراده عن غيره من الشراح بل حتى انفراده على صاحب الحماسة نفسه اختيارا وإخراجا وترتيبا، وهو ما جعلنا نصف الشرح هذا بكونه اختيار على اختيار...

- الهوامش

1 – عالمة خذري: الخطاب الشارح في الشعرية العربية شرح ابن جني لديوان المتنبي. أطروحة دكتوراه علوم إشراف محمد منصوري. كلية الاداب واللغات. جامعة باتنة. 2015/2014. ص 11.

2 – أحمد الودرني. شرح الشعر عند العرب. دار الكتاب الجديد المتحدة. بيروت. ط 1. 2009. ص ص 17-18.

3 – ابن منظور: لسان العرب. دار المعارف. القاهرة. مادة شرح. ص 2228.

4 – ابن فارس: مقاييس اللغة. تحقيق عبد السلام هارون. دار الفكر. 1979. ج3. ص 269.

5 – المصدر نفسه. مادة فسر. ص ص 3412- 3413

6 – عبد السلام هارون: المعجم الوسيط. المكتبة العلمية. طهران. ج1. ص 32.

7 – ابن منظور: لسان العرب. مادة أول. ص 172.

8 – فيصل الشرايبي: منهج ابن السيد البطليوسي في شرح ديوان سقط الزند لأبي العلاء المعري. بحث مقدم لنيل دبلوم الدراسات العليا اشراف بن شريفة محمد. كلية الآداب والعلوم الانسانية. جامعة الحسن الثاني. الدار البيضاء. المملكة المغربية. السنة الجامعية 1989- 1990. ص 375.

9 – المرجع نفسه. ص 375.

10 – أحمد الودرني. شرح الشعر عند العرب. ص 24.

11 – المرجع نفسه. ص 24.

12 – المرجع نفسه. ص 26.

13 – المرجع نفسه. ص 26.

14 – المرجع نفسه. ص 29.

15 – المرجع نفسه. ص 32.

16 – المرجع نفسه. ص 30.

17 – المرجع نفسه. ص 36.

18 – هشام القلفاط: المتغير الأدبي في شروح سقط الزند لأبي العلاء المعري. عالم الكتب الحديث. إربد– الأردن. 2009. ص 16.

19 – ابراهيم اسيكار: أسس التأويل في شرح الخطيب التبريزي لنصوص المفضليات. علامات في النقد. النادي الأدبي الثقافي. جدة. العدد 84. شوال 1436هـ/يونيو2015. ص 260.

20 – أحمد جمال العمري: شروح الشعر الجاهلي نشأتها وتطورها. دار المعارف. القاهرة. ط 1. 1981. ج 1. ص ص 185–186.

21 – محمد عثمان علي: شروح حماسة أبي تمام. دار الأوزاعي للطباعة والنشر والتوزيع. الدوحة–بيروت. ط 1. ص ص 59– 60.

22 – أحمد الودرني. شرح الشعر عند العرب. ص 38.

23 – محمد عثمان علي: شروح حماسة أبي تمام. ص 65.

24 – أحمد جمال العمري: شروح الشعر الجاهلي نشأتها وتطورها. الجزء 1. ص 246.

25 – فخر الدين قباوة: منهج التبريزي في شروحه والقيمة التاريخية للمفضليات. دار الفكر. دمشق. ط 2. 1997. ص 52.

26 – المرجع نفسه. ص 52.

27 – أحمد جمال العمري: شروح الشعر الجاهلي نشأتها وتطورها. ج 1. ص ص 274– 275.

28 – فخر الدين قباوة: منهج التبريزي في شروحه والقيمة التاريخية للمفضليات. ص 56. وينظر كذلك عبد الله عبد الرحيم عسيلان: حماسة ابي تمام وشروحها 60

29 – المصدر نفسه. ص 12.

30 – ينظر أحمد جمال العمري: شروح الشعر الجاهلي نشأتها وتطورها. الجزء 1. ص ص 298– 306.

31 – المرجع نفسه. الجزء 1. ص 325.

32 – المرجع نفسه. ص ص 333– 334.

33 – عبد الله عبد الرحيم عسيلان: حماسة أبي تمام وشروحها. دار إحياء الكتب العربية. د ط. د ت. ص 61.

34 – أحمد الودرني. شرح الشعر عند العرب. ص 40.

35 – أحمد جمال العمري: شروح الشعر الجاهلي نشأتها وتطورها. الجزء 1. ص ص 364– 368.

36 – أحمد الودرني. شرح الشعر عند العرب. ص 41.

37 – ينظر: محمد عثمان علي: شروح حماسة أبي تمام. ص ص 73- 92.

38 – ينظر: محمد عثمان علي: شروح حماسة أبي تمام. ص 70. والعياشي السنوسي: قضايا توثيق النص وتحقيقه.ص ص08- 09.

39- العياشي السنوسي: قضايا توثيق النص وتحقيقه. ص 09.

* – شنتمرية حصن من حصون الأندلس، وتسمى(santamaria)، توجد بدولة البرتغال في القسم المطل على المحيط الأطلسي جنوبا، وقد وصف محمد عبد المنعم الحميري، شنتمرية بقوله:" مدينة في الاندلس ... متوسطة القدر حسنة الترتيب، بها مسجد جامع ومنبر وجماعة، وبها مراكب واردة وصادرة، وهي كثيرة الأعناب والتين... وإليها ينسب الأستاذ أبو الحجاج يوسف بن سليمان الأعلم الشنتمري ذو التصانيف المشهورة" ينظر: محمد عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار. تحقيق احسان عباس. مكتبة لبنان. بيروت. ط 2. 1984. ص 347.

40 – القفطي: انباه الرواة على أنباه النحاة. الجزء 4. ص 66. ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق احسان عباس. دار صادر. بيروت. الجزء 7. ص ص 81/ 82. السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. الجزء 2. ص 356. البغدادي: هدية العارفين أسماء المؤلفين وأثار المصنفين. دار احياء التراث العربي. بيروت. الجزء 2. ص 551. حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. المجلد 1. ص 604. ابن بشكوال: الصلة. مراجعة عزت العطار الحسني. مكتبة الخانجي. القاهرة. ط 2. 1994. الجزء 1. ص ص 643/ 644. بروكلمان: تاريخ الأدب العربي. ترجمة رمضان عبد التواب. دار المعارف. القاهرة. ط 3. الجزء 5. ص 352. الزركلي: الأعلام. دار العلم للملايين. بيروت. ط15. 2002. ج 8. ص 233.

41 – أحمد طايعي: القراءة بالمماثلة في الشعرية العربية القديمة. ص 131.

42 – الأعلم الشنتمري: تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب. تحقيق زهير عبد المحسن سلطان. مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع. لبنان. ط 2. 1994. ص 12.

43 – الصفدي: نكت الهميان في نكت العميان. تحقيق أحمد زكي. المطبعة الجمالية. مصر. 1911. ص 312.

44 – الاعلم الشنتمري: شرح حماسة ابي تمام. تحقيق علي المفضل حمودان. دار الفكر. بيروت. ط 1. 1992. ص 10.

45 – ينظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. الجزء 7. ص 81. القفطي: انباه الرواة على أنباه النحاة. الجزء 4. ص 65.

46 – ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. تحقيق احسان عباس. دار الثقافة. بيروت. 1998. الجزء 2. ص 474.

47 – لقد أورد الأعلم في المقدمة التي صدر بها شرحه على حماسة أبي تمام جميع المصنفات التي ألفها. ينظر. الأعلم الشنتمري: شرح حماسة أبي تمام. ص 92.

48 – المصدر نفسه. ص 93.

49 – المصدر نفسه. ص 51.

50 – المصدر نفسه.. ص 58.

51 – المصدر نفسه. ص 93.

52 – عبد القادر البغدادي. حزانة الأدب. تحقيق عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة. ط 4. الجزء 1. ص ص 21– 22. وينظر كذلك. عبد الله عسيلان: حماسة أبي تمام وشروحها. ص 51.

53 – الأعلم الشنتمري: شرح حماسة أبي تمام. ص 58.

54 – المصدر نفسه. ص 55.

55 – المصدر نفسه.. ص ص 93– 94.

56 – المصدر نفسه. ص 58.

57 – المصدر نفسه. ص ص 57.

58 – المصدر نفسه. ص 97.

69 – الصفدي: نكت الهميان في نكت العميان. ص 313.

60 – ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. الجزء 7. ص ص 81 – 82.

61 – الأعلم الشنتمري: كتاب الحماسة ترتيب الأعلم الشنتمري. تحقيق مصطفى عليان. جامعة أم القرى. ط1. 1423. ص 32.

62 – محمد بن شريفة: أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة. دار الغرب الاسلامي. بيروت. ط1. 1986. ص 81.

63 – رندة محمد العمري: النحو والصرف في شروح حماسة أبي تمام. أطروحة دكتوراه اشراف منى إلياس. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة دمشق. سوريا. 2003–2004. ص 109.

64 – الأعلم الشنتمري: شرح حماسة أبي تمام. ص 66.